زواج الأقارب تحت المجهر

مها عبدالسلام الحموية

ضمن حملة الأمير سلطان بن عبدالعزيز للرعاية الاجتماعية والتثقيف الصحي والتأهيلي صدر حديثاً كتاب زواج الأقارب تحت المجهر لمؤلفه الدكتور عبدالمطلب أحمد السح استشاري طب الأطفال وحديثي الولادة وعضو الجمعيتين الوراثية الأمريكية والأوربية للوراثة البشرية. قدّم للكتاب الأستاذ الدكتور محمد بن حمود الطريقي رئيس مجلس العالم الإسلامي للإعاقة و التأهيل والمشرف العام على الحملة.

جاء في تقديم الدكتور **الطريقي** : " لا شك أن علوم الوراثة قد أضحت من ضروريات وأساسيات هذا العصر، وإذا ما نظرنا إلى التقدم الهائل الذي تحرزه هذه العلوم ، فإننا وبكل ثقة نقول إن المستقبل سيجعل منها ركيزة لا غنى عنها حتى في الممارسة الطبية اليومية، هناك ارتباط وثيق بين الوراثة والزواج والإنجاب، ومن البديهي القول أن الوراثة لا تعني المرض على الدوام، ولكن قد يحدث ويظهر مرض أو إعاقة تتهم فيهما الوراثة ، وهنا تحاول الوراثة إيضاح ما حدث، وتشير إلى الأسباب التي ربما يكون منها قضية الزواج بين الأقارب، التي وبكل صراحة تحتاج لمواجهة جريئة وواقعية لتوضيح ما لها وما عليها " .

يطرح الكتاب عدد من الاسئلة محاولاً الوصول لجواب علمي وموضوعي وواقعي لها ، ومن أهم هذه الاسئلة:

لماذا هذا التقليد الاجتماعي سائد في مجتمعاتنا ؟

هل هو إرث مقبول ويجب استمراره ؟

إن كان الجواب (نعم) ، فما هي مبرراته ؟

وإن كان الجواب (لا) ، فعلى ماذا تعتمد هذه الـ (لا) ؟

ويذكر الكتاب أن ظاهرة الزواج المتكرر بين الأقارب تعتبر قضية هامة، نظراً لاتساع انتشارها في المجتمع، ولاحتمال حدوث أمراض وآفات في بعض حالاتها، ولتداخلها في أساس البناء الاجتماعي ، ألا وهو الأسرة التي يتكون منها المجتمع، والتي يعتبر إسعادها وتحقيق السلامة لأفرادها من كل النواحي الهدف الأسمى للأمم .

جاء الكتاب على شكل محطات عشرين تحدثت **الأولى** منها عن منظومة الخلايا في جسم الإنسان وأسرارها العظيمة مشبهاً إياها بالدول التي مهما عرفنا عنها فإن جهلنا أكبر. أما **المحطة الثانية** فتحدثت عن الجغرافية الصبغية (الكروموزومية) التي تشكل العقل المدبر للخلايا من خلال خارطة دقيقة الأبعاد، تتخذ فيها القرارات الحاسمة في تاريخ البشر . جاءت **المحطة الثالثة** بعنوان " عرس تحت المجهر " وتناولت عملية الإلقاح التي يتشكل بموجبها الجنين من خلال اندماج النطفة القادمة من الذكر مع البيضة التي عند الأنثى . ورغم علمية المادة فإن لمسات الكاتب الأدبية أضفت عليها جاذبية تشد القارئ وتجعله وكأنه يعيش عرساً حقيقياً مجهري الأبعاد .

يتعمق الكاتب في **المحطة الرابعة** في تمهيده النظري ليغوص في أعماق المادة النووية والنوويدات (النكليوتيدات) والمورثات ذاكراً صفات المادة الوراثية عند البشر ولغتها الفريدة.

جاء عنوان **المحطة الخامسة** بالآية الكريمة ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾، وتحدث فيها الكاتب عن الأطوار التي يمر بها الإنسان خلال حياته ودلالة تلك الأطوار. أما **المحطة السادسة** فقد خصصها لكيفية توارث الأمراض ، فذكر أنماط الوراثة المعروفة وصفاتها وأمثلة عنها . وفي **المحطة السابعة** شرح كيف أن (١+١) لاتساوي (٢) على الدوام في علم الوراثة، وأكد أنه لا يشترط وجود قصة مماثلة في العائلة ، وأن هناك علاقة وثيقة مابين البيئة والوراثة، وذكر كيف تتعدد الأسباب والمظهر واحد، أو أن هناك طفرة وحيدة مع مظاهر كثيرة، وكيف أنه للتعبير درجات مختلفة، وأن ليس كل ما هو عائلي هو وراثي، مؤكداً أن تاريخ العائلة هام ووزارة الصحة تستحق الشكر لموقفها من الملفات العائلية .

يدخل الكاتب في **المحطة الثامنة** صميم الموضوع ، ويضع قضية زواج الأقارب في الميزان عبر العلم وثوابته، ومن خلال منهجية علمية حسابية يضعنا الكاتب أمام احتمالات لا تخطر بالبال، وبعدها يقدم لنا رأي الطب من القضية، ويورد أمثلة من أرض الواقع. ويذكر الكاتب في **المحطة التاسعة** أن الإحصاء يعد من أهم الركائز التي تبنى عليها الخطط والبرامج في عالمنا المعاصر، ولذلك يورد لنا أربعين من الدراسات والتقارير والخبرات العالمية بخصوص زواج الأقارب، وقد جاءت تلك الدراسات من مختلف أرجاء العالم مع التركيز على المملكة العربية السعودية، وبدرجة أقل البلدان العربية مثل الإمارات

والكويت وسورية ولبنان وفلسطين والأردن وتونس، ومن ثم البلدان الإسلامية مثل الباكستان وتركيا، وباقي دول العالم مثل أستراليا وبريطانيا وفرنسا والنرويج والسويد وفنزويلا. ويعقد الكتاب مقارنة لانتشار الزواج بين الأقارب في بعض البلدان العربية والإسلامية، ومقارنة أخرى موسعة لانتشار الزواج بين الأقارب في بلدان ومجتمعات من أرجاء مختلفة من العالم.

يورد الكاتب في **المحطة العاشرة** قبسات من نور الإسلام ، حيث يؤكد على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك)) بالنسبة لاختيار المرأة ، وحديثه الشريف صلى الله عليه وسلم : ((إذا أتاكم من ترضون خلقه و دينه فزوجوه إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)) بالنسبة للرجل، وحديثه الشريف صلى الله عليه وسلم: ((تخيّروا لنطفكم ، فانكحوا الأكفاء ،و أنكحوا إليهم)) مؤكداً أن الكفاءة تكون في الدين والخلق .

أما **المحطة الحادية عشر** فقد خصصت لتراثنا العريق الذي يدلي بدلوه في هذه القضية . وفي المحطة الثانية عشر يأتي الحسم حيث يؤكد الكاتب على أن الزواج واجب وضرورة وأنه في الواقع نعمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وأن الله سبحانه وتعالى جعل الحلال كثيراً، والخيارات واسعة، فالمجال الذي يتحرك فيه الإنسان ليختار شريكة حياته أو شريك حياتها واسع بعرف الإسلام، فديننا دين يسر ورحمة، والمحرمات محددة بدقة متناهية الوضوح، والقريبة –كما يقول الكاتب– هي من الحلال الذي قد ترسو عند شاطئه سفينة الزواج، وهناك حالات زواج بين الأقارب كثيرة ورائعة، ولكن يجب ألا يصبح السعي نحو القريبة هماً وقضية، ويجب أن تؤخذ الأمور ببساطة وتسامح، وعلى الطرف الآخر ألا تصبح الغريبة عنده قضية القضايا ، إذ لا يكفي أن يكون الشريك غريباً لإتمام الزواج بل لا بد من توفر الشروط اللازمة شرعاً، وتبقى القاعدة العامة صحيحة، وهي أنه بمقدار تباعد درجة القرابة بين الشخصين بمقدار ما تقل احتمالات الخطورة الصحية . ولاينسى الكاتب أن ينبه لخطورة الزواج من الأجنبيات في بعض الحالات ويذكّر بالقاعدة الشرعية ((درء المفاسد مقدم على جلب المصالح))، ويؤكد أنه ما خاب من استخار، وأن كل إنسان هو حالة خاصة، وقصص الزواج تمثل حالات متميزة لكل منها خصوصياتها.

يتحدث الكاتب في **المحطة الثالثة عشر** عن الأمراض الوراثية ، ونسبها ، وأنواعها ، ومن تصيب ، وتأثيراتها ، وطرق انتقالها بين الأجيال . ونظراً لشيوع وأهمية الأمراض الوراثية التي تصيب الجملة الدموية عند الإنسان فقد أفرد لها الكاتب **المحطة الرابعة عشر** ، وذكر كيف أن الكريات الحمراء تصرخ من هذه الأمراض، وكيف أن الخضاب لا يسلم من الأذى، والكريات البيض تتألم، وجملة التخثر تطالها العلل، والصفيحات الدموية تنال الويل. وفي **المحطة الخامسة عشر** يأتي على تفصيل علاقة بعض أنواع السرطان بالوراثة . أما **المحطة السادسة عشر** فيفردها للوراثة كأحد أسباب الإعاقة على اختلاف أنواعها . أما **المحطة السابعة عشر** فتتحدث عن ارتكاس الإنسان للمرض الوراثي .

يذكر الكاتب في **المحطة الثامنة عشر** أساليب ووسائل الوقاية من الأمراض الوراثية وكيف أن درهم وقاية خير من قنطار علاج، ويذكر بهذا الصدد الاستشارة الوراثية كعمل حضاري، ويعرج على ميادين الوقاية ، وكشف حَمَلَة المرض ، وحماية الجنين ، وتشخيص المرض قبل الولادة ، وأن الأمر مسؤولية الجميع . وفي المحطة التاسعة عشر يأتي على ذكر سبل العلاج المختلفة والتي تبث بإذن الله الأمل في نفس المريض وذويه، فيذكر الطب الإسلامي ووسائل المداواة مثل الحمية والعقاقير الدوائية والإسعاف ونقل الدم أو بعض عناصره والجراحة و زراعة الأعضاء والمعالجة الفيزيائية والأجهزة الحديثة والوسائل التعويضية والعلاج داخل الرحم والهندسة الجزيئية ، ويبقي على أمل آخر من خلال الأبحاث العلمية الحديثة. ولاينسى أن يؤكد أن المساعدة ركن أساسي عبر التثقيف والإعداد للتطورات ، وتشجيع عملية تطبيع الفعاليات ، والإندماج في المجتمع ، وتشجيع الفعاليات والاهتمامات ، وتطوير المهارات ، وتنمية المواهب ، والحث على الاعتماد على الذات ، وأن الاستمرارية مطلوبة مؤكداً أهمية مراكز الأمراض الوراثية .

خصص المؤلف **المحطة العشرون** والأخيرة لمشروع المجين البشري أو الخارطة الوراثية ثورة العصر ، فذكر أنها عمل يهدف لإجراء قراءة كاملة للمليارات الثلاثة من أزواج قواعد الدنا (DNA)، و تحديد عدد ومواضع ووظائف المورثات البشرية بدقة ، وكيف كان ذلك حلماً وفكرة، وصار واقعاً عبرالعمل الشاق والدقيق، وركز على التطبيقات العملية للمشروع والتي ستؤدي لثورة في المفاهيم الطبية ، ذاكر أنه قد بدأت تلوح في الأفق ملامح طب جزيئي لا يعالج الأعراض بقدر ما يستهدف جذورها، أما بخصوص الأوجه الاجتماعية والأخلاقية والقانونية للمشروع فقد ذكرها وشرحها بالتفصيل.

في الخاتمة أكد الكاتب أن الغاية في النهاية هي رضا الله وبسمة طفل تغرد في بيوتنا، ولم ينسى أن يضع ثبتاً بالمصطلحات الشائعة في علم الوراثة باللغتين العربية والإنجليزية، وأن يبوب مراجعه لتوثيق ماذهب إليه ولتسهيل الأمر على من يطلب من المعرفة المزيد.

جدير بالذكر أن الكتاب صدر عن مجلس العالم الإسلامي للإعاقة وإعادة التأهيل، وجاء في مئتين وأربع وأربعين صفحة من القطع المتوسط مدعمة بالصور، ويمثل إضافة غنية للمكتبة العربية.